سورة البقرة

في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فإن قيل: كيف قال: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ على سبيل الاستغراق، وكم ضال قد ارتاب فيه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]؟

قلنا: معناه: لا ريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين، أو هو نفي معناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه؛ إنه من عند الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

فإن قيل: كيف قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والمتقون مهتدون فكان تحصيل الحاصل؟

قلنا: إنما صاروا متقين بما استفادوا منه من الهدى، أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه، أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[(١)] أو أراد الفريقين من يتقي ومن لم يتق، واقتصر على أحدهما كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

وفي قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

فإن قيل: المخادعة إنما تتصور في حق من يخفى عليه الأمور ليتم الخداع في حقه، يقال: خدعه إذا أراد به المكروه من حيث لا يعلم، والله تعالى لا يخفى عليه شيء، فكيف قال يخادعون الله؟ قلنا: معناه: يخادعون رسول الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[(٣)] أو سمى نفاقهم خداعًا لشبهه بفعل المخادع.

---

(١) النازعات: ٤٥.

(٢) الفتح: ١٠.

(٣) النساء: ٨٠.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

فإن قيل: كيف خصَّ الفساد في المنافقين بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ومعلوم أن غيرهم مفسد؟

قلنا: المراد بالفساد الفساد بالنفاق، وهم كانوا مخصوصين.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، والاستهزاء من باب العبث والسخرية وهو قبيح، والله تعالى منزه عن القبيح؟

قلنا: سمى جزاء الاستهزاء استهزاء، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] فالمعنى: الله تعالى يجازيهم جزاء استهزائهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ومعلوم أن الصيب لا يكون إلا من السماء؟

قلنا: فائدته أنه ذكر السماء معرفة وأضافه إليها ليدل على أنه من جميع آفاقها لا من أفق واحد، إذ كل أفق يسمى سماء، قال الشاعر:

وَمِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءُ

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والمشركون لم يكونوا عالمين أنه لا ند له ولا شريك له، بل كانوا يعتقدون أن له أندادًا وشركاء؟

قلنا: معناه: وأنتم تعلمون أن الأنداد لا تقدر على شيء مما سبق ذكره في الآية، وأنتم

(١) الشورى: ٤٠.

تعلمون أنه ليس في التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد[١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

فإن قيل: كيف عرَّف النار هنا، ونكَّرها في سورة التحريم؟[٢]

وقيل: لأن تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة فعرفت إشارة بها إلى ما عرفوه أولاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ ليسا فعلين متغايرين فينهوا عن الجمع بينهما، بل أحدهما داخل في الآخر؟

قلنا: هما فعلان متغايران؛ لأن المراد بتلبيسهم الحق بالباطل كتابتهم في التوراة ما ليس منها، وبكتمانهم الحق قولهم: لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

فإن قيل: قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ما فائدة الثاني، والأول يدل عليه ويقتضيه؟

قلنا: قوله: ﴿مُّلاَقُو رَبِّهِمْ﴾ أي: ملاقو ثواب ربهم، وما وعدهم على الصبر والصلاة، وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: موقنون بالبعث، فصار المعنى: أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب الموعود، فلا تكرار فيه.

---

(١) ويرى الباحث أن المشركين كانوا يعلمون علم اليقين أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وليست بآلهة، ولكن منعهم كبرهم وعنادهم عن اتباع الرسل، وحرصوا على متاع الدنيا، واستكبروا على الرسل، والله أعلم.

(٢) يشير إلى قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وفي قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، وهم إنما بدلوا القول الذي قيل لهم؛ لأنهم قيل لهم: قولوا: حطة، فقالوا: حنطة؟

قلنا: معناه: فبدل الذين ظلموا قولاً قيل لهم، وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠][(١)].

فإن قيل: قوله: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثو: الفساد، فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا: معناه: ولا تعثوا في الأرض بالكفر، وأنتم مفسدون بسائر المعاصي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

فإن قيل: كيف قال: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وطعامهم كان المن والسلوى، وهما طعامان؟

قلنا: المراد أنه دائم غير متبدل وإن كان نوعين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق؟ فما فائدة ذكره؟

قلنا: معناه: بغير الحق في اعتقادهم، ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما في عكسه كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾[(٢)] لزيادة معنى في

(١) تعثوا: تفسدوا، والعثو: الفساد.
(٢) الأنبياء: ١١٢.

التصريح بالصفة، ولأن قتل النبي قد يكون بحق، كقتل إبراهيم – صلوات الله على نبينا وعليه – ولده لو وجد لكان بحق.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس في وسعهم؟

قلنا: هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب، فهو مثل قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨].

فإن قيل: «بين» تقتضي شيئين فصاعدًا، فكيف جاز دخولها على ذلك، وهو مفرد؟

قلنا: ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[٤] إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ فمعناه: عوان بين الفارض والبكر، وسيأتي تمامه في قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ إن شاء الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ كلاهما بمعنى واحد، فما فائدة الثاني؟ قلنا: التفجر يدلُّ على الخروج بوصف الكثرة، والثاني يدلُّ على نفس الخروج،[٥] وهما متغايران، فلا تكرار.

---

(١) البقرة: ١١٧.
(٢) آل عمران: ١٨٦.
(٣) آل عمران: ١٤.
(٤) يونس: ٥٨.
(٥) الصواب: يدل على الخروج نفسه لأنه توكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة:٧٩].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، والكتابة لا تكون إلا باليد؟

قلنا: فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم، وذلك زيادة في تقبيح فعلهم، فإنه يقال: كتب فلان كذا، وإن لم يباشره بنفسه، بل أمر غيره به من كاتب له ونحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

فإن قيل: التولي والإعراض واحد، فكيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُم مُّعْرِضُونَ﴾؟

قلنا: معناه: ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد، وأنتم معرضون عن الفكر والنظر في عاقبة ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم من جملة الناس؟

قلنا: إنما خصوا بالذكر بعد العموم؛ لأن حرصهم على الحياة أشد لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

وفي قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فإن قيل: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ يدلُّ على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين، فلم يكن حرامًا؟

قلنا: العمل به حرام؛ لأنهما كانا يعلمان الناس السحر به ليجتنبوه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ نظيره لو سأل إنسان: ما الزنا؟ لوجب بيانه له ليعرفه فيجتنبه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أثبت لهم العلم أولاً مؤكدًا بلام القسم، ثم نفاه عنهم.

قلنا: المثبت لهم أنهم علموا أن من اختار السحر ماله في الآخرة من نصيب، والمنفي عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه من تحسر في الآخرة، ولا يكون لهم نصيب منها، فالمنفي غير المثبت، فلا تنافي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وإنما يستقيم أن يقال: هذا خير من ذلك، إذا كان في كلٍّ واحد منهما خير، ولا خير في السحر؟

قلنا: خاطبهم على اعتقادهم أن في تعلم السحر خيرًا، نظرًا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوي به.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، وقال في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾؟[1]

قلنا: في الدعوة الأولى كان مكانًا قفرًا فطلب منه أن يجعله بلدًا وآمنًا، وفي الدعوة الثانية كان بلدًا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن، أو كان بلدًا آمنًا فطلب له ثبات الأمن[2]

(١) إبراهيم: ٣٥.

(٢) بالأصل: الأرض، والصواب ما ذكرناه.

ودوامه، وكون هذه السورة مدنية وسورة إبراهيم مكية لا ينافي هذا؛ لأن الواقع من إبراهيم عليه السلام بلغته على الترتيب الذي قلنا، والإخبار عنه في القرآن على غير ذلك الترتيب، أو أن المكي منه ما نزل قبل الهجرة فيكون المدني متأخرًا عنه، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرًا عن المدني، فلم قلتم: إن سورة إبراهيم عليه السلام من المكي الذي نزل قبل الهجرة؟!

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

فإن قيل: أي مدح وشرف لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مع ما له من شرف الرسالة والخلة؟

قلنا: قال الزجاج: المراد بقوله: (من الصالحين) أي: الفائزين.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

فإن قيل: الموت ليس في وسع الإنسان وقدرته حتى يصح أن ينهى عنه على صفة أو يؤمر به على صفة، فكيف قال: ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟

قلنا: معناه: اثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت متم على دين الإسلام، فهو في المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه، أو نهى عن تركه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

فإن قيل: قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إن أريد به الله تعالى فلا مثل له، وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له أيضًا؛ لأن دين الحق واحد؟

قلنا: كلمة (مثل) زائدة، معناه: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، يعني بمن آمنتم به وهو الله تعالى أو بما آمنتم به، وهو دين الإسلام، ومثل قد تزاد في الكلام كما في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[٢]، ومثل بمعنى واحد، وقيل: الباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[٣] أي: مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، وهو لم يزل عالمًا بذلك؟

قلنا: معناه: لنعلمه واقعًا موجودًا، أو أراد بالعلم التمييز للعباد كقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

[البقرة:١٤٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، وهذا يدلُّ على أنه ﷺ لم يكن راضيًا بالتوجه إلى بيت المقدس، مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه؟

قلنا: المراد بهذا الرضا المحبة بالطبع، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟

قلنا: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان: قبلة واحدة.

---

(١) الشورى: ١١.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) مريم: ٢٥.
(٤) الأنفال: ٣٧.

وفي قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

فإن قيل: كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين حتى قال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؟

قلنا: معناه: إلا أن يقولوا ظلمًا وباطلاً، كقول الرجل لصاحبه: ما لك عندي حق إلا أن تظلم أو تقول الباطل، وقيل معناه: والذين ظلموا منهم، فإلا هنا بمعنى واو العطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۞ إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾[1]، وقيل: (إلا) فيهما بمعنى لكن، وحجتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى بيت المقدس: ما درى محمد أين قبلته حتى هديناه، وكانوا يقولون أيضًا: يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا، فلما حوله الله تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجة، فعادوا يقولون: لم تركت قبلة بيت المقدس؟ إن كانت باطلة فقد صليت إليها زمانًا، وإن كانت حقًّا فقد انتقلت عنها، فهذا هو المراد به بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وقيل: المراد به قولهم: ما ترك محمد قبلتنا إلا ميلاً لدين قومه وحبًّا لوطنه، وقيل: المراد به قول المشركين: قد عاد محمد إلى قبلتنا لعلمه أن ديننا حق فسوف يعود إلى ديننا، وإنما سمى باطلهم حجة لمشابهته الحجة في الصورة، كما قال: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقال: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

وفي قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ بعد قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ والشكر نقيض الكفران فمتى يوجد الشكر ينتفي الكفران؟

قلنا: قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ معناه: استعينوا بنعمتي على طاعتي، وقوله: ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ معناه: لا تستعينوا بنعمتي على معصيتي، وقيل: الأول أمر بالشكر، والثاني أمر بالثبات.

---

(١) النمل: ١٠.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وأهل دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم؟

قلنا: المراد بالناس المؤمنون فقط، أو هو على عمومه، وأهل دينه يلعنونه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[1]، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: (إله) في ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، فهلا قال: وإلهكم واحد، فكان أخصر وأوجز؟

قلنا: لو قال: وإلهكم واحد لكان ظاهره إخبارًا عن كونه واحدًا في الإلهية، يعني لا إله غيره، ولم يكن إخبارًا عن توحده في ذاته بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله، والآية إنما سيقت لإثبات أحديته في ذاته، ونفي ما يقوله النصارى: إنه واحد، والأقانيم ثلاثة، أي: الأصول؛ كما أن زيدًا واحد وأعضاؤه متعددة، فلما قال: «إله واحد» دلَّ على أحدية الذات والصفات، ولقائل أن يقول: إن قوله: «واحد» يحتمل الأحدية في الذات، ويحتمل الأحدية في الصفات، سواء كرر ذكر الإله أو لم يكرر، فلا يتم الجواب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ وظاهره تشبيه الكفار بالراعي؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعي مع الأنعام، أو تقديره: ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعي، أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم، أو ومثل الذين كفروا في دعائم الأصنام كمثل الراعي.

---

(١) العنكبوت: ٢٥.

(٢) الأعراف: ٣٨.

فإن قيل: كيف خصَّ المنعوق به بأنه لا يسمع إلا دعاء، ونداء مع أن كل عاقل كذلك أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء؟

قلنا: المراد بقوله: لا يسمع: أنه لا يفهم كقولهم: أساء سمعًا فأساء إجابة، أي: أساء فهمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟[1]

قلنا: المنفي كلام التلطف والإكرام، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافي.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ أي: فرض، والقصاص ليس بفرض، بل الولي مخير فيه، بل مندوب إلى تركه؟

قلنا: المراد به فرض على القاتل التمكين، إلا أنه فرض على الولي الاستيفاء.

وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فإن قيل: كيف قال: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ عطف الأقربين على الوالدين وهما أقرب الأقربين، والعطف يقتضي المغايرة؟

قلنا: الوالدان ليسا من الأقربين؛ لأن القريب من يدلي إلى غيره بواسطة كالأخ والعم ونحوهما، والوالدان ليسا كذلك، ولو كان منهم لكن خصا بالذكر لشرفهما كقوله تعالى: ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[2].

---

(١) الحجر: ٩٢.

(٢) البقرة: ٩٨. ويرى الباحث أن ذكر الوالدين مفردين ثم ضمهما مع الأقربين للتأكيد على أولوية الوصية بالحق والخير لهما فقد ذكرهما مرتين مرة عامًا وأخرى خاصة، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وصوم هذه الأمة ليس كصوم أمة موسى وعيسى -عليهما السلام؟

قلنا: التشبيه في أصل الصوم لا في كيفيته، أو في كيفية الإفطار، فإنه كان في أول الأمر الإفطار مباحًا من غروب الشمس إلى وقت النوم فقط، كما كان في صوم من قبلنا، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾[1] الآية، أو في العدد أيضًا على ما روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه فرض على النصارى صوم رمضان بعينه، فقدموا عشرة وأخروا عشرة لئلا يقع في الصيف وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين فصار صومهم خمسين يومًا بين الصيف والشتاء.

وفي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟

قلنا: ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من الهدى، أي: من جملة ما هدى الله به عبيده، وفرق به بين الحق والباطل فلا تكرار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فإن قيل: ما فائدة إعادة ذكر المريض والمسافر؟

قلنا: فائدته أن الآية المتقدمة نسخ ما فيها تخيير الصحيح، وكان فيها تخيير المريض والمسافر أيضًا، فأعيد ذكرهما لئلا يتوهم أن تخييرهما نسخ كما نسخ تخيير الصحيح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يدلُّ على أنه يجب

(١) البقرة: ١٨٧.

دعاء الداعين، ونحن نرى كثيرًا من الداعين لا يستجاب لهم؟

قلنا: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها**»[(١)]، ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى وأكل الحلال وحضور القلب وقت الدعاء، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة، ولأن الداعي قد يعتقد مصلحته في الإجابة، والله تعالى يعلم أن مصلحته في تأخير ما سأل، أو في منعه عنه فيجيبه إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المصلحة فيكون قد أجيب وهو يعتقد أنه منع.

في قوله تعالى: ﴿**فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ [البقرة: ١٩٩].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾، ومعلوم أن سبعة وثلاثة عشرة؟ ثم ما فائدة قوله: ﴿**كَامِلَةٌ**﴾ والعشرة لا تكون إلا كاملة، وكذا جميع أسماء الأعداد لا تصدق على أقل من المذكور ولا على أكثر منه؟

قلنا: فائدة قوله: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ**﴾ ألا يتوهم أن «الواو» بمعنى «أو» كما في قوله تعالى: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[(٢)]، وألا تحل التسع جملة، فنفى بقوله: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ**﴾ ظنَّ وجوب أحد العادين فقط، إما الثلاثة في الحج أو السبعة بعد الرجوع، وأن نعلم العددين من جهتين جملةً وتفصيلاً.

فيتأكد العلم به ونظيره فذلكة الحساب وتنصيف الكتاب، وأما قوله تعالى: ﴿**كَامِلَةٌ**﴾، فتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿**حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾، أو معناه كاملة في الثواب مع وقوعها بدلاً من الهدى، أو في وقوعها موقع المتتابع مع تفرقها، أو في وقوعها موقع الصوم وقوع بعضها في غير مكة في الحج مع وقوع بعضها في غير مكة، فالحاصل أنه كمال أو في وقوعها موقع الصوم بمكة مع وصفًا لا ذاتًا.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١١).

(٢) النساء: ٣.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾؟

قلنا: إنما كرره تنبيهًا على أنه أراد ذكرًا مكررًا، لا ذكرًا واحدًا، بل مرة بعد أخرى، ولأنه زاد في الثاني فائدة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ يعني اذكروه بتوحيده كما ذكركم بهدايته، ولأنه أراد بالذكر الأول: الجمع بين الصلاتين بمزدلفة، وبالثاني الدعاء بعد الفجر بها، فلا تكرار.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (فإذا أفضتم من عرفات) إلى أن قال: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)، وأراد به الإفاضة من عرفات بلا خلاف، وبعد المجيء إلى مزدلفة والذكر فيها مرتين كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات.

قلنا: فيه تقديم وتأخير تقديره: من ربكم ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾، ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمي إذا لم يكن عليه إثم لا يكون على المتأخر الآتي بالرمي كاملاً؟

قلنا: كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثمًا، ومنهم من جعل المتأخر آثمًا، فأخبر الله تعالى بنفي الإثم عنهما جميعًا، أو معناه لا إثم على المتأخر في تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، أو معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة أو العزيمة في الرمي، ثم قيل:

المراد به تقوى المعاصي في الحج، وقيل: تقوى المعاصي بعد الحج في بقية العمر، بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه في عرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة، والمشكل في هذه الآية قوله تعالى: (في يومين)، والتعجيل المرخص فيه إنما هو التعجيل في اليوم الثاني من أيام التشريق، فكيف ذكر لفظ اليومين وأراد بهما اليوم الثاني فقط؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، وهو يدلُّ على أنها كانت إلى غيره كقولهم: رجع إلى فلان عبده ومنصبه؟

قلنا: هو خطاب لمن كان يعبد غير الله، وينسب أفعاله إلى سواه، فأخبرهم أنه إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردوا إليه ما أضافوه إلى غيره بسبب كفرهم وجهلهم، ولأن «رجع» يستعمل بمعنى «صار» و«وصل» كقولهم: رجع عليَّ من فلان مكروه، قال الشاعر:

وَمَا المَرءُ إِلاّ كَالشِّهابِ وَضَوئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعدَ إِذ هُوَ سَاطِعُ

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيده، فلما خلقهم ملكهم بعضها خلافة ونيابة، ثم رجعت إليه بعد هلاكهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾[2]، وإنما قال: (وإلى الله ترجع الأمور) ولم يقل إليه وإن كان قد سبق ذكره مرة، لقصد التفخيم والتعظيم، وذلك ينافي الإيجاز والاختصار.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين)؛ فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا عن بيان الصرف؟

---

(١) غافر: ١٦.

(٢) الفرقان: ٢٦.

قلنا: قد تضمن قوله تعالى: (قل ما أنفقتم من خير) بيان ما ينفقونه وهو كل خير، ثم زيد ما على الجواب المصرف ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾[1] الآية، وقوله -عليه الصلاة والسلام- وقد سُئل عن الوضوء بماء البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧].

قلنا: لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقًا، وعن الحوادث الأخر، وقع في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

فإن قيل: كيف قال: (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) وعزمهم الطلاق مما يعلم، لا مما يسمع؟

قلنا: الغالب أن العزم على الطلاق وترك الفيء لا يخلو عن مقاولة ودمدمة، وإن خلا عنها فلا بدَّ له أن يحدث نفسه ويناجيها بما عزم عليه، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى كما يسمع وسوسة الشيطان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فإن قيل: كيف قال: (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك)، ولا حق للنساء في الرجعة، و«أفعل» يقتضي الاشتراك؟

قلنا: المراد أن الزوج إذا أراد الرجعة وأبت وجب إيثار قوله على قولها؛ لأن لها حقًّا في الرجعة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحًا) والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل العدة.

قلنا: المراد أن الرجعة أصوب وأعدل إن أراد الزوج الإصلاح وتركها أصوب

---

(١) طه: ١٧.

(٢) سنن الترمذي: باب الطهارة ٥٢، وسنن أبي داود: باب الطهارة/ ٤١.

وأعدل إن قصد الإضرار بها.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [(١)]، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾؟ [الدخان: ٥٦].

قلنا: المراد بالآية الأولى إماتة العقوبة مع بقاء الأجل، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل، نظيره قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: (ثم بعثناكم من بعد موتكم) لأنها كانت إماتة عقوبة، أو كان إحياؤهم آية لنبيهم على ما عرف في قصتهم، فصار كإحياء العذير عليه السلام حين مرَّ على القرية، وآيات الأنبياء نوادر مستثناة، فكان المراد بالآية الثانية الموتة التي ليست بسبب آية نبي من الأنبياء أو إحياء قوم موسى آية له أيضًا، فكان هذا جوابًا عامًا، مع أن في أصل السؤال نظرًا؛ لأن الضمير في قوله: «لا يذوقون» للمتقين، وقوله: «فيها» للجنات، على ما يأتي بيانه في سورة الدخان إن شاء الله تعالى على وجه يندفع به السؤال من أصله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فإن قيل: كيف قال: (والله يؤتي ملكه)، والله تعالى لا يؤتي ملكه أحدًا؟

قلنا: المراد بهذا الملك السلطنة والرياسة التي أنكروا إعطاءها لطالوت، وليس المراد بأنه يعطي ملكه لأحد؛ لأن سياق الآية يمنعه.

فإن قيل، كيف قال في الماء: (ومن لم يطعمه) [(٢)]، ولم يقل: ومن لم يشربه، والماء مشروب لا مأكول؟

قلنا: طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق، والذوق هو المراد هنا وهو يعم.

وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فإن قيل: كيف خصَّ موسى وعيسى –عيهما السلام– من بين الأنبياء بالذكر في قوله تعالى: (تلك الرسل) الآية؟

---

(١) البقرة: ٢٤٣.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

قلنا: لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة من الكتابين العظيمين المشهورين.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾، وفي يوم القيامة شفاعة الأنبياء وغيرهم بدليل قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[٣].

قلنا: هذه الآيات لا تدلُّ على وجود الشفاعة يوم القيامة، بل تدلُّ على أنها لا توجد ولا تنفع بغير إذنه، ولا توجد لغير مرضيٍّ عنده، وهذا لا ينافي نفي وجودها، بل المنافي له الإخبار عن وجودها لا الإخبار عن إمكان وجودها، ولو سلم؛ فالمراد به نفي شفاعة الأصنام والكواكب التي كانوا يعتقدونها، ولهذا عرّض بذكر الكفار بقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٤]، وقيل: المراد أنه لا شفاعة في إثم ترك الواجبات؛ لأن الشفاعة في الآخرة في زيادة الفضل لا غير، والخطاب مع المؤمنين في النفقة الواجبة وهي الزكاة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (والكافرون هم الظالمون) على جهة الحصر، وغيرهم ظالم أيضًا؟

قلنا: لأن ظلمهم أشد، فكأنه لا ظالم إلا هم، ونظيره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥].

---

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الأنبياء: ٢٨.
(٣) سبأ: ٢٣:
(٤) البقرة: ٢٥٥.
(٥) فاطر: ٢٨.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) بلفظ المضارع، ولم يقل أخرجه بلفظ الماضي، والإخراج قد وجد؛ لأن الإيمان قد وجد؟

قلنا: لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الإخراج من الله تعالى في الزمان المستقبل في حق من آمن بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية، وفي حق من لم يؤمن ممن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية وزيادتها أيضًا، ولفظ الماضي لا يدل على هذا المعنى.

فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظلمات الكفر، والكافرون في نور الإيمان ليخرجوا من ذلك؟

قلنا: الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول، يقال لمن امتنع عن الدخول في أمر: خرج منه وأخرج نفسه منه، وإن لم يكن دخل فيه فعصم الله تعالى المؤمنين عن الدخول في ظلمات الضلال إخراج لهم وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذي يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى، ولأن إيمان أهل الكتاب بالنبي ﷺ قبل أن يظهر كان نورًا لهم، وكفرهم به بعد ظهوره خروج منه إلى ظلمات الكفر، ولأنه لما ظهرت معجزاته -عليه الصلاة والسلام- كان موافقه ومتبعه خارجًا من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومخالفه خارجًا من نور العلم إلى ظلمات الجهل.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾

[البقرة:٢٥٨].

فإن قيل: كيف انتقل إبراهيم ﷺ إلى حجة أخرى وعدل عن نصرة الأولى، مع أنه لم ينقطع بما عارضه به نمروذ من قتل أحد المحبوسين وإطلاق الآخر، فإن إبراهيم عليه السلام ما أراد هذا الإحياء والإماتة؟

قلنا: إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك الإحياء والإماتة التي أضافها إبراهيم عليه السلام إلى الله حيث عارض معارضة لقضية عن اختلاف المعنيين، أو لأنه فهم الحجة، لكنه قصد التمويه والتلبيس عن أتباعه وأشياعه، فعدل إبراهيم إلى أمر ظاهر يفهمه كل أحد، ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس.

فإن قيل: كيف طبع الله على قلبه فلم يعارض بالعكس في طلوع الشمس؟

قلنا: لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب؛ لأن ذلك أمارة قيام الساعة فلا يوجد إلا قريبًا من قيامها، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده، فلو ادعاه لكذبوه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فإن قيل: كيف قال عذير عليه السلام منكرًا مستبعدًا: (أني يحيى هذه الله بعد موتها) وهو نبي، والنبي لا تخفى عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها؟

قلنا: ما قاله منكرًا مستبعدًا لعظيم قدرة الله تعالى، وطلبًا لرؤية كيفية الإعادة لأن «أني» بمعنى «كيف» أيضًا، وقد نقل عن مجاهد: أن المار على القرية القائل ذلك كان رجلاً كافرًا شاكًّا في البعث، وإن كان الأول هو المشهور.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: (أو لم تؤمن)، وقد علم أنه أثبت الناس إيمانًا؟

قلنا: ليجيب بما أجابه؛ فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون النبي غير مطمئن القلب بقدرة الله على إحياء الموتى حتى قال إبراهيم: (ولكن ليطمئن قلبي)؟

قلنا: معناه ليطمئن قلبي بعلم ذلك عيانًا كما اطمأن به برهانًا، أو ليطمئن بأنك اتخذتني خليلاً، أو بأني مستجاب الدعوة.

ولقائل أن يقول على الوجه الأول: كيف يزداد يقينا بالمشاهدة، وقد روى عن عليٍّ - كرَّم الله وجهه- أنه قال: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»، وإبراهيم -صلوات الله عليه وسلامه- أعظم رتبة وأجل؟

وجوابه أن عليًّا أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان؛ حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان

يسيرة لا يعتد بها.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة ٢٦٠].

قلنا: الفائدة فيه زيادة نتأملها، ومعرفة أشكالها وصفاتها، لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنها غيرها.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (فصرهن إليك) أي: فضمهن، ولفظ الأخذ مغن عنه؟

قلنا: الفائدة فيه تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها، لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنه غيرها.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

فإن قيل: كيف مدح الله المتقين بترك المن ونهى عن المن أيضًا مع أنه وصف نفسه بالمنان؟

قلنا: منَّ بمعنى: أعطى، ومنه المنان في صفات الله تعالى، وقوله: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾[1]، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] أي: أنعم عليهم، وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾[3] أي: إنعامًا بالإطلاق من غير عوض، ومنَّ بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ من القسم الثاني.

قلنا: ذلك اعتداد بنعمة الإيمان، فلا يكون قبيحًا، بخلاف نعمة المال، ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح في حقه ذم في حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

---

(١) ص: ٣٩.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) محمد: ٤٧.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ثم قال: ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؟

قلنا: لما كان النخيل والأعناب أكرم من الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما، وإن كان فيها غيرهما تغليبًا لهما وتفضيلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافًا) يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق، فكيف قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؟

قلنا: المراد به نفي السؤال والإلحاف جميعًا كقوله تعالى: ﴿لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ وكقول الأعشى:

لاَ يَغْمِزُ السّـــاقَ مِنْ أَيْنٍ ولا نَصَبٍ

معناه ليس بساقه أين ولا وصب فيغمزها.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فإن قيل: كيف قال: (الذين يأكلون الربا) الآية، ألحق الوعيد بآكله مع أن لابسه ومدخره وواهبه أيضًا في الإثم سواء؟

قلنا: لما كان أكثر الانتفاع وأهمه بالمال إنما هو الأكل؛ لأنه مقصود لا غناء عنه ولا بدَّ منه، عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل كما يقال: أكل فلان ماله كله، إذا أخرجه في مصالح الأكل وغيره؟

فإن قيل: كيف خصَّ الآكل بذكر الوعيد دون المطعم، وكلاهما آثم؟

قلنا: لأن انتفاعه الدنيوي بالربا أكثر من انتفاع المطعم.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

[البقرة: ٢٧٥].

فإن قيل: كيف قال: (إنما البيع مثل الربا)، والكلام إذ ذاك في الربا ومقصودهم

تشبيهه بالبيع، فقياسه «إنما الربا مثل البيع» في حله؟

قلنا: جاءوا بالتمثيل على طريق المبالغة وذلك أنه أبلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه أصلاً في الحل والبيع فرعًا كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه، إذا أرادوا المبالغة.

فإن قيل: كيف قلتم: إن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، وقد قال الله تعالى في حق آكل الربا: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؟

قلنا: الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء، وإن لم يكن بصفة التأبيد، يقال: خلد الأمير فلانًا في الحبس، إذا أطال حبسه، أو أن قوله: (فأولئك) إشارة إلى من عاد إلى استحلال الربا بقوله: (إنما البيع مثل الربا) بعد نزول آية التحريم، وذلك يكون كافرًا، والكافر مخلد في النار.

فإن قيل: إنظار المعسر فرض بالنص، والتصدق عليه تطوع، فكيف قال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؟

قلنا: كل تطوع كان محصلاً للمقصود من الفرض بوصف الزيادة كان أفضل من الفرض، كما أن الزهد في الحرام فرض وفي الحلال تطوع، والزهد في الحلال أفضل كما بينا كذلك هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾

[البقرة: ٢٨٢].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (بدين)، وقوله تعالى: (تداينتم) مغنٍ عنه؟

قلنا: فائدته رجوع الضمير إليه في قوله تعالى: (فاكتبوه)؛ إذ لو لم يذكره لقال: فاكتبوا الدين، فالأول أحسن نظرًا لأن التداين مشترك بين الاقتراض والمبايعة وبين المجازاة، وإنما يميز بينهما بفتح الدال وكسرها، ومنه قوله تعالى: (مالك يوم الدين) «يسألون أيان يوم الدين» فذكر الدين ليتعين أي المعنيين هو المراد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فإن قيل: كيف شرط السفر في الارتهان بقوله: (وإن كنتم على سفر) الآية، وجواز الرهن لا يختص بالسفر؟

قلنا: لم يذكره لتخصيص الحكم به، بل لما كان السفر مظنة عوز الكاتب، والشاهد الموثوق بهما أمر على سبيل الإرشاد لحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فإن قيل: ما فائدة ذكر القلب في قوله تعالى: (فإنه آثم قلبه) مع أن الجملة هي الموصوفة بالإثم، لا القلب وحده؟

قلنا: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان ذلك إثمًا مقرونًا بالقلب ومكتسبًا به أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما يقال: هذا ما أبصرته عيني، وسمعته أذني، ووعاه قلبي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)، وما يحدث به الإنسان نفسه لا يأثم به ما لم يفعله، إما لأنه لا يمكن الاحتراز عنه في الوسع والطاقة، أو بالحديث المشهور؟

قلنا: قيل: أريد بالآية العموم، ثم نسخ بقوله تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، وقيل: لا نسخ فيه لأنه خبر لا أمر أو نهي، بل العموم غير مراد، وإنما المراد ما يمكن الاحتراز عنه، وهو العزم القاطع والاعتقاد الجازم، لا مجرد حديث النفس والوسوسة، ولأنه أخبر عن المحاسبة لا عن المعاقبة.

فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وما أخفوا ليعلموا إحاطة علمه بجميع ذلك ثم يغفر لمن يشاء فضلاً، ويعذب من يشاء عدلاً، كما أخبر في الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فإن قيل: أي شرف للرسول ﷺ في مدحه بالإيمان مع أنه في رتبة الرسالة ودرجتها، وهي أعلى من درجة الإيمان، فما فائدة قوله تعالى: (آمن الرسول)؟

قلنا: فائدته أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان حيث مدح به خواصه ورسله، ونظيره في سورة الصافات قوله تعالى في خاتمة ذكر كل نبي: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فإن قيل: روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قرأ: (ملائكته وكتابه) فسئل عن ذلك، فقال: كتاب أكثر من كتب، فما وجهه؟

قلنا: قيل فيه: إنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع، والجنس أكثر من الجمع؛ لأن حقيقته في الكل على ما ذهب إليه بعضهم، ويرد على هذا أن يقال: الكلام في الجمع المضاف، والمفرد المضاف للاستغراق عرفًا وشرعًا كقوله لعبده: أكرم أصدقائي، وأهن أعدائي، وقوله: زوجاتي طوالق وعبيدي أحرار، بخلاف قوله: صديقي وعدوي، وعبدي وامرأتي، فظهر أن الجمع المضاف أكثر.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فإن قيل: قوله: (لا نفرق بين أحد من رسله) «بين» لا تضاف إلا إلى اثنين فصاعدًا، فكيف قال: (لا نفرق بين أحد من رسله)؟

قلنا: «أحد» هنا بمعنى الجمع الذي هو آحاد كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[2]؛ فإنه ثم بمعنى الجمع بدليل قوله تعالى: ﴿حَاجِزِينَ﴾ فكأنه قال: لا نفرق بين آحاد من رسله، كقولك: المال بين آحاد الناس، ولأن «أحد» يصلح للمفرد المذكر والمؤنث، وتثنيتها وجمعها نفيًا وإثباتًا، تقول: ما رأيت أحدًا إلا بني فلان، أو إلا بنات فلان سواء، وتقول: إن جاءك بكتابي فأعطه وديعتي، يستوي فيه الكل، فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[البقرة: ٢٨٦].

فإن قيل: من أين دلَّ قوله: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) على أن الأول في الخير،

(١) الصافات: ٨١.
(٢) الحاقة: ٤٧.

والثاني في الشر؟

قلنا: قيل هو من كسبت واكتسبت، فإن الأولى للخير والثاني للشر، وليس بدليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾[١]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾[٤]، والاقتراف والاكتساب بمعنى واحد.

وقيل: هو من اللام وعلى، وليس بدليل أيضًا لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[٧]، اللهم إلا أن يدعي أن «اللام» و«على» عند الإطلاق يقتضيان ذلك، أو لأنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما في هذه الآية لا نفرق بين ذكر الحسنة والسيئة، أو الحسن والقبيح، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾[٨] أطلقه وأراد به الشر، بدليل ما بعده وقولهم: الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، وقولهم: فلان يشهد لك وفلان يشهد عليك، ويقول الرجل لصاحبه: هذا الكلام حجة عليك لا لك.

قال للشاعر:

على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لا عليّ ولا ليّا

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٩]، وإن كان مقيدًا إلا أنه فيه دلالة أيضًا من جهة «اللام» و«على»؛ لأن القيد شامل للظرفية.

---

(١) النساء: ١١٢.
(٢) المدثر: ٣٨.
(٣) الشورى: ٣٤.
(٤) الشورى: ٢٣.
(٥) الرعد: ٢٥.
(٦) الإسراء: ٧.
(٧) البقرة: ١٥٧.
(٨) الأنعام: ١٦٤.
(٩) فصلت: ٤٦.